فتاة في المدينة !

قصة بقلم محمد ابو المعاطي ابو النجا

لا ... ليس ما تحس به هو انها تكاد تغرق . فالاحساس بالغرق حاد ولكنه قصير ، ينقذنا منه ذلك الموت الحاسم الذي يتسرب الى الجسد مع المياه من الفم والانف والاذن . ومع ذلك فقد كان الاحساس بالغرق هو اوضح مايمكن ان تعبر به عما تحسه. فقد كانت تشعر ان الاشياء من حولها رطبة كالمستنقع ، وان قوى هائلة تتجاذبها كالموج، وانها لا تكاد تملك امر نفسها كالغريق ...

***

– تفضلي يا مدموازيل

– وشاعت في الوجه الصغير موجة من الكبرياء الخانقة. وظلت واقفة، وبهزة رأس خفيفة متمنعة فهم الشاب ان الآنسة ترفض ان تجلس في المقعد الذي تركه من اجلها، فعاود الجلوس وقد احس بحرج بالغ، وسرعان ما خبأ وجهه بين صفحتي جريدته كأنما ليقطع الصلة بينه وبين العيون التي احس بها تنظر اليه في سخرية واشفاق معاً ...

اما هي فقد كانت مسحة من العناد تغلف ملامح وجهها الفاتن فتزيده قسوة وفتنة معاً . وبين لحظة واخرى كانت تهز رأسها كأنما لتنفض عنها نظرات الركاب التي كانت تحس بها ثقيلة كريهة كالذباب ...

– القصر العيني ... يا لله ... بسرعة من فضلك ...

وانقطع صوت الكمساري . وهبط بعض الركاب. وخلت بعض المقاعد. كان من بينها مقعد الشاب الذي دعاها للجلوس منذ حين، ومع انه كان اقرب اليها من اي مقعد آخر، فقد تركته لتحتل مكانها الى جوار كهل كان يقرأ جريدة الاهرام . واحست بعد لحظات قصيرة ان عيني الكهل تتسللان الى وجهها من وراء منظاره في وقاحة وضعف ثم وقفت العربة فجأه في المحطة التالية ، فأحست بكتفه تصدم جسدها بفعل الوقوف المفاجيء . ومع انها لم تكن محطتها فقد نزلت . لم تعد تطيق العربة ولا الركاب ولا عيون الذباب ولا جريدة الاهرام ... وحين احتواها الشارع احست بنوع من الهدوء يتسرب الى نفسها . ونظرت في ساعة يدها ... لا يزال هناك بعض الوقت ... يمكنها ان تتمشى قليلا قبل ان تذهب لتشاهد حفلة العرض الصباحية بسينما الشرق . وبدون قصد تقريباً، وجدت نفسها تسير في شارع هادىء نوعاً ما. كانت تكره الشوارع المزدحمة بالناس كما تكره العربات المكتظة بالركاب ولا تدري لماذا عادت الى مخيلتها في تلك اللحظة صورة الركاب وفي مقدمتها صورة الشاب الذي ترك لها مقعده ... وكأنما اسفت لما حدث . كان وجهه ودوداً وأخجله رفضها ... اتراها كانت قاسية ؟ واحست بموجة من الضيق تكتسح نفسها ... كم تكره في نفسها هذا الضعف ... كلهم كلاب ... كلاب ... ولفحت وجهها خفقة من النسيم ، فارتجفت تلك الخصلة المدلاة من شعرها الناعم وومضت عيناها العسليتان ببريق خاطف هو مزيج من الثقة والخوف. لم تكن تخاف شيئاً معيناً ، ولم يكن بينها وبين ذلك الشاب ما يدعو الى الخوف . كان واحداً من هؤلاء الذين تجمعنا بهم المصادفة في عربة او قطار، ومع ذلك فقد كان يجثم في اعماقها احساس غائم بالخوف ، الخوف الذي يثيره في نفوسنا ... اننا لا نثق بالاشياء التي حولنا ... كانت تحس ان الاشياء من حولها ليست كما تبدو لاول وهلة ... كلمات الناس ... حركاتهم ... بسماتهم ... كل ما يفعلون ... كل هذه الاشياء جدران لا نبصر منها سوى ناحية واحدة، ويظل في الناحية الاخرى شيء لا يمكن ان نراه . ويبقى ذلك الشيء يثير فينا الخوف الذي يصنع بدوره قدراً من الثقة ... ومع ذلك فهي تذكر جيداً ان هذا لم يكن شعورها حيال الاشياء قبل ان تعرف « فهمي ». كانت قبلها لا تدرك سوى ان للاشياء وجهاً واحداً هو ما تراه العين لاول وهلة ... واصطدمت قدمها بكرة صغيرة من المطاط كان يلعب بها ولدان ... في الشارع ... لا بل ولد وبنت ... لعلهما اخوان ... لا يهم ... وظلت سائرة ... وعادت الى خيالها قصة فهمي ... كانت في طريقها الى المدرسة حين تطوع لها فهمي بقعده في العربة وجلست شاكرة، وكان في يده هو الآخر حقيبته المدرسية فحملتها عنه وتبادلا كلمات قصيرة لم تكن تعرفها قبلها. ان هذا الشاب الرقيق الذي ترك لها مقعده يسكن قريباً من منزلها ... لم تكن وقتذاك تفهم للاشياء اكثر من معنى واحد، لقد ترك لها مقعده وتحدث اليها في رقة وحياها وهي هابطة . ما معنى كل هذا ؟ وفي المرات القادمة لم يترك لها مقعده لانهما كانا يجلسان معاً تحدثه عن مدرسة الرسم ويحدثها عن مدرس الانجليزي، وتتفرج على كتبه ويتفرج على كراساتها . لقد احبته ولم تكن تحبه وحده بل كانت تحب العربة . والركاب. والمحطات التي تعدها كل صباح وهي ذاهبة الى المدرسة . والكساري اللبق الذي يتجاهل يدها الممتدة بثمن التذكرة ليأخذ ثمنها منه ... كانا حبيبين ... لا تدري كيف احبته هكذا بدون ان تشعر ؟ كان كل شيء فيه يدعو الى الحب ... عيناه الثرثارتان بما لا يحب ان يسمعه الركاب ، ابتسامته الماكرة حين يلقاها في الطريق مع امها فلا يستطيعان سوى تبادل البسمات ، جبهته السمراء التي يختفي نصفها تحت خصلة الشعر المتهدلة برغمه ، قامته الرياضية التي تكاد تخفيها عن الركاب حين تجلس بجواره ... لون سترته البني الداكن . رباط عنقه الاحمر، حتى حقيبته ... كانت تحبها ... كانت تضمها الى صدرها كطفل حين تحملها عنه في العربة. لقد كانا يخرجان خلسة في بعض الاحايين، ويتحدثان عن عبد الوهاب وفريد الاطرش . كانت تحب فريد، اما هو فكان يتحمس لعبد الوهاب. كان مزاجها يتفق في الافلام فكلاهما يحب نجاد حمدي وفاتن حمامه ولم يتحدثا يوماً عن الزواج . كانت تعتقد انه من العيب ان تتحدث فتاة في مثل هذه الشئون. وان الفتاة الكريمة لا ينبغي ان تثير موضوعاً كهذا . كانت تعتقد انه هو الذي سيثير هذا الموضوع في الوقت المناسب ، فهي لم تكن تجهل انه لا يزال طالباً وانها لا تزال صغيرة.. ! ودوى خلفها صوت بوق ومرت بجوارها سيارة انيقة يقودها شاب. كانت السيارة قد هدأت من سرعتها بالقدر الذي يسمح للشاب ان يهمس ببضع كلمات لم تسمعها بوضوح وان كانت فهمتها بصفة عامة واحمر وجهها وتعثرت خطاها ووقفت تماماً حتى تبتعد العربة ماذا يظنها هو الاخر ؟ كلهم هكذا ... كلاب ... كلاب ... لم تكن تعرف ذلك تماماً قبل ان تنتهي علاقتها بفهمي على هذه الصوره العجيبة لم يتخاصما ....لم يحدث بينهما شيء يمكن ان يتسبب في انهاء علاقتهما بتلك الصورة القاسية . كانت تظن ان نجاحها في نهاية العام الدراسي يعني بالنسبة اليهما شيئاً كبيراً ... يعني خطوة الى المستقبل الجميل . ولكن الذي حدث هو انه سافر الى بلدته في

الاجازة ولم يعد ... لم يعد حتى الى البيت الذي كان يسكنه فقد سكن مكانه في العام الجديد طالب آخر ... ذهب حتى بدون ان يودعها . بدون ان يفعل شيئاً يجعلها تحس ان كل ما كان بينهما لم يكن حلماً باهتاً لا ظل له ! ماذا كانت هي بالنسبة له ؟ ما كان معنى علاقتهما ؟ انه لم يقل شيئاً ... لم يحاول حتى ان يكذب ..! ومع ذلك فقد ظلت فترة طويلة تعيش في هذا الحلم مغمضة العينين ... كانت تود ان تلقاه مصادفة كما لقيته اول مرة لتقول له انه حقير وتافه، وانها لم تعد تحبه . ولكن القاهرة كبيرة جداً الى الحد الذي لا تسمح فيه بتكرر المصادفات ..! ومع ذلك فقد ظلت تقولها ... تلك الكلمة ..، انت حقير وتافه ... تقولها في صمت، لكل من يحاول ان يترك لها مقعده في العربة ...

– ها . ها . ها

والتفتت نوال خلفها ... كانت هناك شلة من الشبان تقترب ، تسبقهم عاصفة من الضحك

– ماشيه لوحدك ليه ..؟ هو القمر بيطلع بالنهار ..؟ يا تري انت رايحه لمين ؟ يا هنا الموعود ..!

ولم تعد نوال تميز الاصوات ... واحست كأنها تجر قدميها . كانت مرتبكة . كانت تحس بلذة لا طعم لها ... لذة بغيضة . لم يكن بمقدورها ان تتكلم او ان تقف ... متى سيسكتون ؟ الطريق خالية نوعاً ما وهذا مما يشجعهم ..! ورفعت رأسها حين لم تعد تسمع شيئاً ..! وبلا وعي وجدت اعماقها تتساءل ... اين ذهبوا ..؟ لقد اختلف طريقهم عن طريقها ... الطريق وحده هو الذي جمعهم ... المصادفة وحدها ... انهم لا يعنون شيئاً ... لو ان فتاة اخرى كانت تسير مكانها لما تغير شيء ..؟ وحاولت عبثاً ان تبلع ريقها ... كان جافاً ... وكانت تشعر بمرارة قاسية ... وشحب لونها ... كلهم هكذا ... ومرة اخرى بدأت تحس بالخوف يتسلل الى نفسها في قسوة ... لا ... لا ينبغي ان تخاف ... انها طالبة وحين تفرغ من دراستها لن تكون في حاجة الى احد ... وارتسمت على شفتيها بسمة مرهقة كانت تعبر عن الخوف اكثر مما تعبر عن الثقة... فعلى حافة المستقبل، في الطريق وفي الترام وفي العربات وحتى في مكان العمل ، كان يتراءى لها اطياف رجال ... يبتسمون دائماً في رقة، وتنساب من شفاههم الكلمات المذبة التي لا تعني شيئاً ... وبدا لها المستقبل رهيباً بدون رجل تثق فيه ... وبدأت تشعر ان المسير في الشارع امر قاس جداً .. لم يكن الشارع خالياً تماماً .. فبعض الفتيات يلعبن على الحبل « النطة »، وتتفرج بعض النوافذ عن حبل تدلى في نهايته سلال صغير يضع فيه بائع الفول الاخضر ما تريده السيدة التي تساومه من الطابق الثالث .. وخادمة صغيرة لا تكاد تبصر الفتيات يلعبن على الحبل حتى تقف قليلاً تتفرج عليهن ثم لا تلبث ان تمضي بما اشترته من البقال قبل ان تشعر سيدتها بتأخرها .. وبجانب الحائط وقفت قطة بيضاء تتمسح بالارض وترمق بائع الفول الاخضر في بلاهة .. اما نوال فقد كانت تبصر هذه الاشياء كلها دون ان تعيها تماماً ..!

***

الظلام يسود قاعة العرض والموسيقى التصويرية تهيىء المشاعر لموقف غرامي تلقى فيه بطلة الفلم حبيبها بعد غيبة طويلة .. ثم يلتقي الحبيبان . وتغمض نوال عينيها على ذلك المنظر الفاتن وتجتاح اعماقها مشاعر غامضة تستسلم لها في نشوة حلوة . ولكنها لا تلبث ان تفتح عينيها في دهشة . حين تحس ان يداً تلامس يدها .. وادركت في لحظة ان المقعد الذي كان خالياً بجوارها قد جلس فيه صاحب اليد الممتدة .. لم تثر .. لم تنبس شفتها بكلمة واحدة. ولكنها تمالكت نفسها تماماً وسحبت يدها من يده وغادرت مقعدها ... لم تكن تظن ان وجهها قد شحب الى هذا الحد قبل ان تبصره في احد المرايا بمدخل السينما .. وجلست بالاستراحة المعدة للرواد .. كانت منفعلة جداً .. لم يكن بمقدورها ان تواصل السير ... لقد احست بهوان عجيب .. لم يكن يفزعها ما حدث في ذاته وانما – ولم تخجل هذه المرة من مواجهة مشاعرها في صراحة – وانما يفزعها ان يحدث بهذه الصورة .. ان هذا الشاب لا يعني شيئاً .. فهو لا يعرفها ... ولم تكن هي بالنسبة اليه سوى مصادفة سعيدة يشكر عليها الحظ .. الحظ الذي جعل مقعدها بجواره .. انه لا يعنيه منها سوى انها فتاة ... فتاة تبهج في حياته لحظة . انه لم يأت الى هنا من اجلها هي .. انها لا تنكر ان اعماقها كانت تحلم بشيء كهذا حين اغمضت عينيها على ذلك المنظر الفاتن ان يكون بجوارها رجل .. تلتصق به وتدفن يدها في يده .. رجل جاء معها، جاء من اجلها ... اما ان يحدث الامر كذلك فهذا ما يثير في وجدانها شعوراً بالتقزز .. بالهوان .. لا .. لن تسلم نفسها بهذه السهولة لمخلوق .. انها ليست شيئاً .. انها .. واحست في عينيها تداوة الدموع وتماسكت قليلا حين انحنى امامها الجرسون يسألها عما اذا كانت تريد شيئاً . وطلبت كوباً من شراب الليمون. لم تكن تقصد شيئاً معيناً .. لقد ذكرت اقرب شيء الى لسانها .. كانت تريده ان يمضي .. لقد احست بكراهية له .. كان هو الاخر يتكلم برقة زائدة وينحني اكثر من اللازم .. كلهم زائفون .. كيف تعود الى البيت ..؟ النقود التي معها لا تكفي لاجرة التاكسي .. لقد بدا الامر صعباً الى حد كبير .. الطريق مليء بالرجال .. والعربات العامة والترام . في كل مكان يوجدون دائماً .. وعاد الجرسون .. وفي يده صينية انيقة فوقها كوب من عصير الليمون .. وكانت وهي تشرب تحس بعينيه المتهورتين تتلصصان فوق جسمها في فضول؛ وفي سرعة راحت تجرع الكوب حتى نهايته . وغادرت السينما .. وحين وضعت قدمها في بداية الطريق احست انها تكاد تغرق .. لا .. لم يكن ما تحس به انها تكاد تغرق ، فالاحساس بالغرق حاد ولكنه قصير ينقذنا منه ذلك الموت الحاسم الذي يتسرب الى الجسد مع المياه في الفم والانف والاذن ، ومع ذلك فقد كان الاحساس بالغرق هو اوضح ما يمكن ان تعبر به عن نفسها . فقد كانت تشعر ان الاشياء من حولها رطبة كالمستنقع وان قوى هائلة تتجاذبها كالموج وانها لا تكاد تملك امر نفسها كالغريق ..!

القاهرة — **محمد ابو المعاطي ابو النجا**

هذه المجلة

طبعت في مطابع « **الآداب** » التي تعلن استعدادها لطبع الكتب والمجلات والنشرات التجارية طبعاً أنيقاً وسريعاً ، على آلاتها الاوتوماتيكية .

بيروت – الخندق الغميق – شارع الشدياق

ص. ب ١٠٨٥ تلفون ٢٦٩٩٦